المؤرخون الأوروبيون والدولة الجزائرية خلال العهد العثماني.

د. محمد أوجرتني
جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة

يعتبر البحث في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني في بداياته، ولا يزال بحاجة إلى مزيد من الجهد الكمي والنوعي الكثيف، وذلك لطول الفترة المدروسة التي تشمل زمنيا نحو 330 سنة، شهدت خلالها البلاد الكثير من التفاعلات والأحداث والتَّحَوُّلات السياسية والإقتصادية والاجتماعية.

و لا تزال أهمُ مصادر ومراجع البحث في تاريخ الجزائر العثماني تستند بصورة كبيرة على الوثائق التي تركها الغربيون، سواء الرحالة و الأسرى أو الدبلوماسيين والهواة، حيث اتسمت كتاباتهم بالانطباعية والفجائية ولم يكن في وسعهم تدوين ملاحظاتهم بصورة متأنية ودقيقة، كما كانت مشاهداتهم محدودة جغرافيا، إذ لم يتجاوزوا في أغلب الأحيان الشريط الساحلي أو بعض المدن الكبرى، وبقيت دواخل البلاد نا\ية عنهم، وَحَالَ بينهم وبينها الامتداد الجغرافي الكبير واختلاف اللغة والدين وحالة الحرب غير المعلنة بين المسلمين في المغرب الأوسط وأوروبا.

وتشكل المصادر الغربية وكتابات الرحالة الاوروبيين على ما فيها من شطط موردا هاما للباحثين في التكوين الاجتماعي والديني والفكري، وقد أحس الكثير من المؤرخين بعدم توازن الدراسات التاريخية، وبضرورة الاهتمام بما يطلق عليه بعضهم بـ" **العصور المظلمة**"، حيث يقول في هذا

الشأن "مارسيل كولومب[1]" Marcel Colombe أنّ تاريخ الجزائر العثمانية غير مدروسٍ كثيراً وغير معروفٍ، ولا تزال الأساطير تحتل مكانة كبيرة ضمنه.

ويدرك المؤرخون الفرنسيون بصورة أخصّ أَنَّ المعلومات التي يملكونها عن الفترة العثمانية تكاد تكون نادرة، ومستمدةٌ جلُّهَا من انطباعات الرحالة الأوروبيين، رغم تفاوتهم العلمي وتأثرهم بالنزعات العدوانية ضد إيالة الجزائر خلال هذه الفترة.

ويرى في هذا الإطار "بيار بوييه[2]" Pierre boyer أن الأخذ بالكتابات الغربية وحدها لا يؤدي سوى لرسم جداول قاتمة حول الوضع في إيالة الجزائر"، لا يُرجى منها العثورُ على شيء من التسامح وحسن الفهم والتقدير للعادات والتقاليد السائدة.

إن الحواجز الثقافية بين الأوروبيين والمسلمين قد هيئ للأفكار المسبقة الخاطئة، التي تبناها أغلب المؤرخين الكولونياليين، أمثال "ستيفان

---

1 - مستشرق فرنسي معاصر ولد بمدينة الجزائر سنة 1913 وتوفي سنة 2001 مختص بالكتابة والبحث في تاريخ العالم الاسلامي المعاصر، وهو استاذ بالمدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية من 1962 الى 1979 ومسؤول التحرير في كراسة الشرق المعاصر 1946-1956 الى ومدير مجلة الشرق 1957 الى 1969 وساهم في ترجمة العديد من التاليف من العربية للفرنسية، من كتاباته الحياة في القاهرة في القرن 18، وتطور مصر وعدة مقالات اخرى.

2 - بيير بوير كاتب ومؤرخ فرنسي ولد سنة 1865 في باريس وتوفي عام 1933 بتونس اشتغل بالتدريس والترجمة والبحث في تاريخ شعوب المغرب العربي كما كان رساما، درس القانون كان شغوفًا بالبحر، حيث رسمه في عدة لوحات سافر الى لندن وهولندا وسويسرا. ثم انتقل إلى تونس واستقر بها الى ان وافاه أجله. من آثاره

Boyer P. *La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française* *A Alger à la veille de l'intervention française.*

قزال[1]" وغيره، ممن كان يرى أن الجزائر جزء من أوروبا اقْتُطِعَ تعسفا من إفريقيا الشمالية في العهد التركي.

إن استمرار وجود النظرة الأحادية في التعامل مع تاريخ المنطقة، جعل من الضروري البحثُ في مستويات أخرى، لرسم معالم تاريخ جديد للمنطقة كدواخل المجتمع الجزائري واستنطاق الوثائق العثمانية والمحلية المختلفة، وقد عبر عن هذا المؤرخ المغربي محمد العروي[2]، حين يقول إن نظام الحكم في الجزائر في الفترة العثمانية كان يدير ظهره لدواخل البلاد، ويعتبرها مناطق متمردة، ولمعرفة طبيعة المجتمع الجزائري والضوابط التي كانت تحكمه والقيم التي كان يستند إليها في تلك الفترة، لا مفر من دراسة التاريخ المحلي، وهو الشيء الذي دعا إليه المؤرخ الفرنسي "جاك بارك" حينما ألح على ضرورة رد الاعتبار للوثائق المحلية بمختلف أنواعها.

ومن خلال النظرة الأولى لكتابات الغربيين نجدهم تناولوا كل ما له علاقة بإيالة الجزائر وما شاهدوه في نطاق عملهم وما سمعوا به من خلال

1- ستيفان قزال من مواليد 7فيفري 1864 في باريس تخرج من المدرسة العليا للأساتذة عام.1883 ثم التحق بالمدرسة الفرنسية في روما لدراسة الإثار وطرق التنقيب على الحفريات حصل على شهادة الدكتوراه في عام1894 م اهتم باثار الجزائر فكتب حول حول آثار تيبازة بعدما تم تعيينه في المدرسة العليا للآداب في مدينة الجزائر، وفي سنة 1901م كتب حول "البنايات القديمة في الجزائر. شغل منصب مفتش للآثار القديمة عام1900 ، ثم نصب مديرا لـ"متحف الجزائر. أهم إنجاز علمي وتاريخي له " التاريخ القديم لشمال أفريقيا

Histoire ancienne de l'Afrique du Nord

2 - محمد العروي مؤرخ ومفكر وفيلسوف مغربي له عدة مساهمات وكتابات في تاريخ المغرب العربي وفلسفته، من أكثر كتبه شهرة" مجمل تاريخ المغرب"

المرويات الشفوية التي بلغت أسماعهم[1]، ومن أبرز القضايا التي ما كتبوا فيها:

- بروز الأتراك في منطقة البحر المتوسط في نهاية القرن 15 وبداية القرن 16.
- الحملات المسيحية على شمال إفريقيا.
- انضمام الجزائر للسلطنة العثمانية
- الحياة الاجتماعية وتحكم الزوايا والطرق الصوفية فيها.
- الأقليات الأجنبية ومعاناتها في الجزائر.
- الحياة الثقافية.
- الصراع على السلطة.
- الثورات الداخلية والانتفاضات ضد الحكم التركي.
- العلاقات الخارجية وتهديد السلم والأمن العالمي والملاحة في البحر المتوسط.
- نشاط القراصنة الجزائريين وأدوارهم المخربة للحضارة والمدنية الغربية.. وغير ذلك.

وللإشارة فقد نال هذا الموضوع عناية المؤرخين الجزائريين خلال مناسبات عديدة وكتبت فيه عدة أبحاث ومذكرات أهمها ما جمعته مجلة الاصالة في عدد خاص بعنوان موقف المؤرخين الاجانب من تاريخ الجزائر سنة 1971، شارك في تحرير هدا العدد باحثون بارزون منهم ابو القاسم سعد الله وعبد الجليل التميمي ومولاي بلحميسي وشارل روبار اجيرون وابو العيد دودو ويحي بوعزيز والمهدي البوعبدلي وغيرهم.

1- أ سعد الله، " منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر" في مجلة الأصالة، عدد خاص، وزارة التعليم الاصل يوالشؤون الدينية الجزائر 1973، ص18.

ومن خلال هذه الورقة التي أتقدم بها للملتقى سوف نبحث في مجموعة من العناصر الهامة التي رآى من خلالها الكتاب الغربيون تاريخ الجزائر، وتضمنتها خطة الورقة والمتمثلة في ما يلي:

لمحة تاريخية

احتدم الصراع بين سكان المغرب واسبانيا خاصة بعد استقرار الأندلسيين المهجرين في سواحل المغرب فانظموا إلى السكان الأصليين في مهاجمة الثغور الاسبانية ونقل مهاجري الأندلس إلى سواحل المغرب الاسلامي الشمالية آمنين، ردا على أعمال الظلم والإرهاب التي مارسها الإسبان ضدهم[1].

وقد كانت مدينة الجزائر تمثل الجبهة المتقدمة للمغرب الأوسط، التي تطل على البحر المتوسط مواجِهة الحملات والأطماع الإسبانية، وكانت تحكم المدينة مشيخة تنحدر من قبيلة الثعالبة، سارعت بعد سقوط بجاية بيد الإسبان سنة 1510 إلى إرسال وفد من الأعيان للإسبان لاسترضائهم بدلا من المقاومة، وسلموا لهم جزر البينون، واتخذ الإسبان من هذا النصر منطلقا للتوسع حيث قاموا ببناء قلعة بحرية على أنقاض مسجد إسلامي كان موجودا بالجزر، وسميت القلعة بصخرة الجزائر أو البنيون ثم احتلوا مدينة تدليس "دلس" وكل المراسي القريبة منها[2].

---

1 - ع. س. التر، **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، ترجمة محمود علي عامر،دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط01 بيروت 1989 ، ص17.

Ernest Mercier histoire de l' Afrique Septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830). tome second. ernest leroux éditeur. Paris.1868.p429

2 - ع ف م الغنيمي، **موسوعة المغرب العربي**، مكتبة مدبولي ، القاهرة، 1994، ص59.

واختلف المؤرخون حول مجيء العثمانيين للمنطقة هل كان ذلك من أجل إنقاذ المغرب العربي من التوسع المسيحي الأوروبي، الذي كانت تتزعمه اسبانيا[1]، أم هي أطماع توسعية على عادة الإمبراطوريات القوية آنذاك.؟

وبالنظر للحملات التي تعرضت لها الجزائر منذ سقوط غرناطة حتى وقوع المدينة تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي سنة 1830 يمكننا أن نرجح الرأي القائل بقدوم الأتراك لنجدة سكان المنطقة من ويلات التحرش الاسباني، وحملاته المتكررة على سواحل المنطقة، التي سكتت عن ذكر فظائعها المصادر والكتابات الغربية.

فلا شك في أن الوجود العثماني في الجزائر وتونس أنقذاهما مبكرا من الاحتلال الأوروبي خاصة اسبانيا التي تزعمت الكاثوليكية في العالم المسيحي، وكانت عازمة على إخضاع شمال إفريقيا كله لسلطانها، وقد تمكنت من تأسيس قاعدة لها في المنطقة بعد احتلال المرسى الكبير سنة 1505 ووهران سنة 1510 [2].

لقد برز الأتراك في تلك المرحلة كمنقذين لمسلمي الغرب[3]، ولم يتبادر إلى ذهن الأهالي يوما ما كان يروج له الإسبان والغربيين عموما عن الأتراك والذي تضمنته كتاباتهم التاريخية سواء في تلك الفترة أو بعدها.

وقد كان للعمق الديني والعقائدي والموروث المسيحي المستلهم من تاريخ الحروب الصليبية دورا كبيرا في تأجيج الصراع بين أوروبا وجنوب البحر المتوسط، والذي طبع حركية العلاقات بين الطرفين بالعنف والتدمير

---

1 - أ ق. سعد الله **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1996، ص ص 186-187.

2 - ع ك. غلاب، **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي عصر الامبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر، دار الغرب الاسلامي**، 2005.، ص62.

3- ع ح بن أشنهو، **دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر**، ش.و.ن.ت. الجزائر 1972، ص34.

الشامل والتكفير، ويتجلى ذلك من خلال تتبع حلقات الصراع التي عملت على تأجيج الصدام بين الطرفين، وخير مثال على ذلك يجسد هذا التصور حملة شارلكان على مدينة الجزائر 1541 التي لم تمثل بالنسبة للطرفين سوى الصراع بين الإيمان والكفر.

ويجمع الباحثون والمؤرخون أن الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830 لم يكن مشروعا عسكريا أو اقتصاديا عابرا، أو مغامرة معزولة بل كان مشروعا استيطانيا متكاملا، سخّرت من أجل تحقيقه إدارة الاحتلال جميع الوسائل المادية والمعنوية التي من شأنها أن تجسده على أرض الواقع.

وكانت سلطات الاحتلال تدرك أن رد فعل الأهالي المتمثل في المقاومة لن يتوقف بمجرد حملة عسكرية ناجحة، أو بحرق وتدمير القرى والأرياف وقطع الأشجار وحرق المزروعات، التي يقتات منها الأهالي، لأن القضية بالنسبة إليهم صارت مسألة كرامة وشرف وتهديد للكيان المحلي بأبعاده الدينية والاجتماعية.

وكانت سلطة الاحتلال تعلم أن مصادر القوة التي يستند إليها الأهالي في مقاومة الاحتلال الاستيطاني تتمثل في مجموعة من القوى المعنوية غاية في التركيب والتعقيد، شكلت التلاحم بين عناصر الهوية المحلية ببعدها الجغرافي والعرقي بالإضافة إلى بعدها الديني، المتكون من العقائد الاسلامية والرصيد التاريخي الحافل الذي ساهمت به المنطقة على امتداد نحو عشرة قرون من العطاء والتفاعل الحضاري، فشكلت كيانا ثقافيا كبيرا وعميقا، لكن هذا الكيان عجز على ايجاد وبعث منظومة سياسية قوية تحميه وتحافظ عليه.

1.- المؤرخون الغربيون نماذج مسارات ومناهج

لقد كانت الانطلاقة لإعادة كتابة تاريخ المنطقة وتفسيره بما يخدم أهداف الوافد الجديد سنة 1831، حينما أذن برتيزين قائد الجيش الفرنسي

للسيد شيافي العالم الأثري بالتنقيب عن الآثار في المنازل والحدائق العامة بمدينة الجزائر وضواحيها التي وقعت تحت السيطرة، لقد كان الطريق شاقا وصعبا لكنه لم يكن مستحيلا بالنسبة للنخب السياسية والعسكرية والثقافية والدينية التي وحدت وسائلها وجهودها لخدمة هدفين أساسيين أحدهما هو دراسة وإعادة قراءة تاريخ الجزائر وفق فلسفة المدرسة الغربية الكولونيالية، وثانيهما تجسيد أهداف الحملة العسكرية لسنة 1830، وكان هذا العمل مرتكزا على:

تفكيك مركبات التاريخ المحلي إلى عناصر منفردة مشتتة وبسيطة.

بلورة صور جديدة لهذه العناصر توسمها بالضعف والتناقض بين مكوناتها.

تقديم قراءات جديدة للثقافة المحلية والتاريخ مقرونة بوضعيات التخلف والركود والجهل الذي سعت الإدارة الاستعمارية للقضاء عليه في إطار شعارها الذي حملته سنة 1830.

تفكيك عناصر الهوية المحلية وحلقات التاريخ المترابطة وإخضاعها للمنطق التاريخي الغربي القائم على أساس الصراع بين الإرادات المتزعمة والباحثة عن المجد ومراتب النبلاء وألقاب الفروسية.

ومن أبرز النماذج والصور التي قدمها الكتاب الفرنسيون عن الأخر خلال هذه المرحلة العسيرة من تاريخ الجزائر:

صورة البدائي الذي هو بحاجة إلى تحضير وتثقيف وشحن بالمثل الغربية.

صور الرفض للوجود التركي الأجنبي في الجزائر من طرف الأهالي وإبراز الفظائع التي رافقته طيلة 312 سنة.

صور المجتمع المشحون بالصراعات والقبليات يعبر عن فشل الانتماء للدولة العثمانية.

صورة المجتمع غير المنسجم بين فئاته المختلفة العرقية والدينية والجهوية.

وتملك مدن الجزائر عشرات المئات من الكتابات الفرنسية التي بينت بصورة جلية أهمية المدينة في المخيلة الفرنسية ومكانتها في المحيط السياسي والأكاديمي، وقد تعددت بحيث يصعب حصرها بين من تناول تاريخها القديم والوسيط والحديث، وبين من تناول دراسة تراجم أعيانها وعلمائها وبين من تناول دراسة عمرانها ومواقعها الجغرافية، وتزخر المكتبة الرقمية الفرنسية الموسومة بـ: gallica.bnf.fr بعشرات المئات إن لم نقل الآلاف من هذه التصانيف المفيدة، التي هي بحاجة للاطلاع عليها من أجل الاستفادة منها وغربلة مضامينها.

وما من شك أنه لا يمكن لأي دولة أن تستغني عن أي طرف ساهم في كتابة تاريخها، وساهم بقسط ولو بسيط في رسم معالمها الماضية المختلفة، ومهما صنفت هذه الكتابات، فإنها تعد الوجه الآخر لما كتبه الأجانب، وهو مفيد في توسيع دائرة البحث والإدراك للحقائق التاريخية بصورة مجملة.

إن تاريخ الجزائر في مختلف مراحله يزخر بعشرات الآلاف من الكتابات التاريخية الفرنسية والأجنبية، تضمها المكتبات ودور الأرشيف الهامة بأوروبا أو بفرنسا كمركز فانسان وآكس أون بروفانس، وقد قامت المصالح التابعة للمكتبة الوطنية الفرنسية .B.N.F السابق ذكرها بتزويد المهتمين بعشرات الآلاف من الوثائق التاريخية، تتضمن كتبا وجرائدا وصورا ومقاطع صوتية ومتحركة لأحداث تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر والوسيط والقديم للاستفادة منها.

وتعد هذه الكتابات التاريخية الأجنبية رغم ما تتسم به من عنصرية وتحقير أحيانا وابتعادا عن الموضوعية أحيانا أخرى من الأهمية بمكان، فهي

تمكننا من فهم وكتابة تاريخ الجزائر وفق ما يطرحه الآخر، الذي يقود اليوم قافلة البحث العلمي والكتابة التاريخية ويحدد مساراتها القيمية، كما أنها تمكننا من نقد هذه الكتابات والتعرض لهذه الرؤى والتصورات بالنقد والتحليل.

كتب بارتيليمي أوغيست1 1796-1867 كتابا بعنوان قسنطينة أغاني الحرب مهدى إلى الجيش الفرنسي بإفريقيا، ويتضمن إشادات بأعمال وانجازات الفرنسيين بعد احتلال الجزائر وقسنطينة، ومما جاء فيه:" فرنسا كنتِ ثابتة حينما سالت دماؤُكِ الزكية من كل الشرايين وحينما بلغت الأخبار مدينة باريس تنبئ عن موت 40 ألف فرنسي آه هل انطفأت أمجادك وأصوات الصلوات تملأ البراري...." 2

وكتب سالفار فيليكس[3] "أربعة قصائد شعرية حول حملتي قسنطينة، إهداء للدوق دو نيمور le duc de Nemours، ومما جاء فيها:

فرنسا هزمت حشود افريقيا.
على قراهم ترفرف ألوان النصر.
على قمم الأطلس الجنود يحملون الأعلام.
العرب والقبائل الأقوياء والبدو والرحل .
وضعوا مجدهم الخائن وعجرفتهم على الأرض.
معترفين بسيادة الجيش المنتصر على شواطئ البربر.
إلا رجلا اسمه أحمد رفض الخنوع..
وأبى إلا إهانتنا من على قلاع مدينته.

---

1 -Barthélemy, A. **Constantine :chant de guerre dédié à l'armée d'Afrique**. 1857

2 -Salvaire, F. **Les deux expéditions de Constantine** : poème en 4 chants, dédié à S. A. R. Mgr le duc de Nemours. 1838

3- opcit. 12

هذا الطاغية المجرم يأبى إلا أن يؤلب علينا العرب.

لكن يقينا سيلقي سيفه... وستدفع الثمن مدينته لجرأتها..

.ولا ننسى تآليف الفرنسيين عن الحقبة العثمانية وهي متعددة منها كتاب أرنيست مارسيي1 "قسنطينة قبل الحملة الفرنسية" حيث خصصه لتاريخ المدينة خلال فترة حكم أحمد باي.

وقد كافأ الملك الفرنسي لويس فيليب **الكونت فالي** على انجازه فعينه ماريشال فرنسا ثم حاكما عاما على الجزائر في 1837/12/01.في وقت تعالت فيه بعض الأصوات المطالبة بترك قسنطينة بعد تفكيك الحكم فيها اعتراض بعض النواب على السياسة الفرنسية في افريقيا والمطالبة بالانسحاب نهائيا منها لكن الكاتب يذكر بما قاله دوق دورليون في رسالة للملك لويس فيليب قوله:"ان تحويل بربارية الى الممتلكات الاوروبية سيعتبر من اكبر الاعمال والاحداث التي ستميز هذا القرن"2

ويذكر أن عشرات المئات من المؤلفات كتبها قادة الجيش الفرنسي كمذكرات لهم عن تجربتهم في الديش الفرنسي العامل بإفريقيا، وفي هذا الصدد يكتب الجنرال كادارت شارل ريمي3 كتابا بعنوان " ذكريات عن قسنطينة، يوميات ضابط صف الهندسة"، يذكر فيه كل ما رأى وما عايش خلال رحلته من طولون الفرنسية إلى مدينة عنابة ثم قسنطينة ثم تسجيله لمختلف عملية البناء والتعمير لمقاطعة قسنطينة وشق الطرق والقنوات وبناء الجسور لفرض السيطرة الاستعمارية الفرنسية على هذه الجهات.

---

1 - Ernest m, **Constantine avant la conquête française 1837,notice sur cette ville a l'époque du dernier bey**, constantine, 1878.

2 - ibid, p192.

3 - Cadart, C R . **Souvenirs de Constantine: journal d'un lieutenant du génie**, rédigé en 1838-39 Paris. . 1894.

ولا نمر دون الإشارة لجملة من الكتابات المهمة الأخرى منها كتاب أوغيست شاربونو1 " قسنطينة وتاريخها القديم، وفاليري دوفوازان2 حملات قسنطينة مرفوقة برؤية عامة حول ممتلكاتنا في إفريقيا، وكتاب احتلال قسنطينة من طرف الفرنسيين 1837 لصاحبه بيشي دي سكورجيانو3 من تقديم بيشي قيامباتيستا، ولورونت شارل فيرو4 1829-1888 تاريخ مدن مقاطعة قسنطينة ووثائق تخدم تاريخ الممتلكات الفرنسية القديمة في افريقيا، وجون بيار بونافور5 " رؤى حول الجزائر زخاصة مقاطعة قسنطينة، حول أصول المدينة والبايات الذين حكموا من 1710 حتى 1837 ، ولا ننسى الموسوعة التاريخية لمدينة قسنطينة التي ألفها أرناست مارسيي1840-1907 بعنوان تاريخ قسنطينة6.

وكتب أوجان فالي عن المدينة عشية الاحتلال، هذا الكاتب الذي يمثل ربما نموذجا للكتاب الفرنسيين المبهورين أمام عظمة قسنطينة "المدينة الشامخة على جبال الأطلس التلي، تمثل كما وصفها رحالة العصر الوسيط عش نسر منصوب على أعالي الجبال، لمناعتها وقوتها" وكتب فالي يتحدث عن النصر الذي حققته فرنسا باحتلال قسنطينة حيث يقول :"ان يوم 13

---

1 -Cherbonneau, A. Constantine et ses antiquités, extraits des nouvelles annals des vouyages. 1857.

2 - Devoisins, V.. Expeditions de Constantine, accompagnées de réflexions sur nos possessions d'Afrique, Earnest Leroux editeurs. Paris.... 1840

3 - Bichi, G. Prise de Constantine par les français. iano.paris. 1837.

4 -Féraud, L-C. Histoire des villes de la province de Constantine : et documents pour servir à l'histoire des anciennes concessions françaises d'Afrique.1877.

5 -Bonnafont, J-P. Réflexions sur l'Algérie, particulièrement sur la province de Constantine : sur l'origine de cette ville et les beys qui y ont régné depuis l'an de l'égire 1133 (1710) jusqu'en 1253 (1837) / 1846.

6 - E Mercier Histoire de Constantine. éditions soubiron, Constantine, 1903

أكتوبر 1837 يعد تاريخا هاما جدا في تاريخ إفريقيتنا الشمالية Notre Afrique du Nord والذي سيسطر أحداثا جوهرية في تاريخ بلدنا، إن قسنطينة بتاريخها ومكانتها ودورها الذي لعبته في الماضي تشكل رمز قوة وعامل توجيه وإدارة لما حولها من الجهات".

لقد كان اهتمام فالي بهذا الموضوع بالغا حيث أفرد له مؤلفا خاصا، تحت عنوان تاريخ مدينة قسنطينة ماضيها ومئويتها 1837-1937، نبش فيه جراحا عميقة في المدينة وتاريخها ومجدها الضائع حيث يقول:" قسنطينة بموقعها المتميز، سماها الرحالة المحليون مدينة الهواء"1، ويعرج فالي فيمن عبروا بهذه المدينة وتركوا انطباعات مختلفة حولها فيقول :"فهذا الرحالة العبدري يقول عنها : مدينة يدافع عنها موقعها الحصين، ويقول في شأنها احمد بن المبارك : بنيت المدينة على جبال تحيط بها الفراغات من كل الجوانب، وهي عبارة عن برنوس يلف المدينة منشور أمام أشعة الشمس، طربوشه العلوي في القصبة وأسفله في باب القنطرة حسب ما تحكي الأسطورة المحلية2" وهو ما يوحي بانبهار الكاتب بهذه المدينة المتميزة.

والحقيقة أنها كثيرة هي الكتابات التي تناولت تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ولا نبالغ إن قلنا أنها تعد بالآلاف كتبها الفرنسيون والأوروبيون وشملت مختلف الميادين ويمكن ذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

شارل فيرو المترجمون في الجيش الفرنسي شارل فيرو[3].

---

1 - Constantine : son passé, son centenaire (1837-1937). 1937. recueil des notices et memoires de la societe archeologique de constantine01

2 - opcit, p02.

3- هذا الكتاب أهداه لقائد الجيش الفرنسي : جاء في مقدمة الاهداء:

mon général, permettez-moi de vous offrir ce livre : à vous qui, ayant fait la plus grande partie de votre carrière en algérie, avez été à même d'apprécier

ايميل ماسكوراي E. Masqueray نشأة المدن عند السكان المقيمين في الجزائر بمنطقة القبائل بجرجرة والشاوية بالاوراس وبني ميزاب[1].

فيكتور امباردیس Victor Imberdis محمد والإسلام دراسة تاريخية[2].

بول ماسون: Paul Masson تاريخ نشأة المؤسسات التجارية الفرنسية في افريقيا البربرية 1560-1793. الجزائر تونس ليبيا المغرب[3].

هنري ديغرامون: H.-D. De Grammont كتب تاريخ الجزائر تحت الهيمنة التركية 1515-1830[4].

الكولونيل دوماس: Colonel M. Daumas القبائل الكبرى دراسات تاريخية[5].

موريس بونافون:M. Bonnafont الجغرافيا الصحية لمدينة الجزائر وضواحيها[1].

---

les services des hommes dont j'ai cherché à retracer la biographie ; à vous aussi, dont tous les actes

témoignent d'une si intelligente bienveillance pour les interprètes de

l'armée. en plaçant cet ouvrage sous votre haut patronage, je vous exprime au nom de tous mes camarades, les sentiments de reconnaissance que vous a voués le corps auquel j'ai l'honneur d'appartenir.

charles féraud.

L. – Féraud.C. les interprètes de l'armée d'Afrique 1876

1 Masqueray, E. formation des cités chez les populations sédentaires de l'algérie (kabyles du djurdjura, chaouïa de l'aourâs, beni mezâb) 1886.

2. V Imberdis mahomet et l'islam, étude historique, 1867.

3 P Masson **histoire des établissements et du commerce français dans l'afrique barbaresque (1560-1793)** (algérie, tunisie, tripolitaine, maroc) 1903

4) h.-d. de Grammont **histoire d'alger sous la domination turque (1515-1830** paris.1887.

5 . m. Daumas la grande kabylie études historiques. Paris. 1867.

ساندار رونق وفرديناند دونيز Sander Rang Et Ferdinand Denis تأسيس ايالة الجزائر وتاريخ الاخوة بربروس من خلال مخدود عربي ويذكر فيه حملة شارل كانت على الجزائر[2]،

البير دوفولكس Albert Devoulxكتب المعالم العمرانية الدينية بمدينة الجزائر، سنة 1870.[3]

فراي دييغو دو هايدو fray diego de haëdo كتب عن الأسر في مدينة الجزائر[4]،

شاربونو Cherbonneau كتب عن مدينة قسنطينة وتاريخها في القديم[5]

وكتب اوجان فالي .E. Vallet[6] عن يوم 13-10-1837 تاريخ سقوط مدينة قسنطينة بيد الفرنسيين.

أم بيرو، حملة احتلال الجزائر تناول فيها كل شيء[7]

---

1 m. Bonnafont **géographie médicale d'alger et de ses environs**, alger, brachet et bastide, libraires,1839..

2 S Rang et F Denis. **fondation de la régence Alger**, histoire des barberousse chronique arabe du xvie siècle sur un manuscrit de la bibliothèque royale, avec un appendice et des notes expédition de charles-quint. aperçu historique et statistique du port d'alger, paris1837.

3 -Devoulx, A (1826-1876**). les édifices religieux de l'ancien Alger** 1870

4 F D De Haëdo .**de la captivité à Alger traduction** de moliner-violle .typographie adolphe jourdan imprimeur-libraire-éditeur place du gouvernement1911..

5 M. A. Cherbonneau Constantine et ses antiquités, Constantine : son passé, son centenaire (1837-1937)

6 -V E. Vallet 13 Octobre 1837 Le Ravin ; de Constantine ; et les origines de Cirta.

7 - M. Perrot **la conquête d'Alger** ou relation de la campagne d'afrique motifss détails évènements qui ont précédé le débarquement, . d'après les documens officiels et particuliers Paris .1830.

.وكتب كوبولاني Xavier Coppolani واوكتاف دوبون Octave DeponT

الجمعيات الدينية الاسلامية في الجزائر[1]، سنة 1897.

وكتب أونفونتان[2] Enfantin احتلال الجزائر. 1907

وألفونس روسو ,Alphonse Rousseau وقائع إيالة الجزائر[3]،.

والكولونيل تريمليت[4]، Le Colonel C. Trumelet، بليدة قصص وأساطير.1887.

وايميل بيليسييه[5] ,E. Pellissierحوليات جزائرية،.

وايدمون دوتي[6]، Edmond Doutté ملاحظات حول الاسلام المغاربي المرابطي، 1900.

والجنرال دوماس[7] Le Général Daumas عادات وتقاليد الجزائر، في في التل وبلاد القبائل والصحراء،

---

1 Octave Depont Xavier Coppolani .**les confréries religieuses musulmanes** publié sous le patronage de m. jules cambon gouverneur général de l'algérie. contenant 4 chromolithographies 7 gravures tirées a part 55 dans le texte et une carte en couleurs alger typographie et lithographie adolphe jourdan imprimeur-libraire-éditeur 1897.

2 Enfantin.A. de la colonisation l'Algérie P. bertrand, libraire. paris. 1843..

3 A Rousseau .chroniques de la régence d' Alger traduites d'un manuscrlt arabe intitulé el-zohrat-el-nayerat, (auteur : Muhammad ibn Muhammad al-Tilimsânî.) imprimerie du gouvernement. Alger, 1841..

4 C. Trumelet. Blida récits selon légende, la tradition & l'histoire. alger adolphe jourdan, libraire-éditeur. 1887..

5 E. Pellissier Annales Algériennes, , Raynal. Paris, 1836....

6 Edmond Doutté Notes Sur L'islâm Maghribin Marabouts extrait de la revue de 1'histoire des religion tomes xl et xli ernest leroux, éditeur 28, rue bonaparte, 28 1900.. .. paris.

7 Daumas. Mœurs Et Coutumes De L'algérie Tell — Kabylie — Sahara librairie de l. hachette et cie rue pierre-sarrazin, n° 14 1853. Paris.

ويعد بيار دان القس المسيحي صاحب كتاب "تاريخ بربارياوقراصنتها"، من أكثر الكتاب الغربيين تطرفا، حيث قدم صورا قاتمة عن السلطة والأتراك والبربر والممارسات التي كانت شائعة، والتي توحي حسب رأيه بانعدام وجود دولة تسير البلاد وتنظم شؤونه، وذات معالم واضحة، فقد تحدث عن السلطة السياسية القائمة سواء في القسطنطينية أو في مختلف إيالاتها، معمما أحكامه بصورة قاسية فضة، فيقول :"يجب التسليم والإيمان أن البشوات وقادة الجيش وهم سادة المنطقة كانوا يختارون أولا من الأسرى الرجال المهمين الذين يبعثون بهم لسيدهم الكبير في القسطنطينية،، ويختارون في نفس الوقت أفضل النساء والصبايا الجميلات، اللواتي يحتجزن في جناح الحريم، ويقوم بحراستهن الجنود، في الوقت الذي يشبع فيه السلطان نهمه من ممارسة العهر معهن، وفي بعض الأوقات تتحول إحداهن إلى زوجة للسلطان وتجلس على العرش"1

ويضيف بيار دان :"ومهما يكن فإنني لم أجد في العالم من يستحق أوصاف البخل والحقارة من الأتراك والبربر، وليس أدل على ذلك أكثر من استمرارهم في ممارسة أعمالهم الحمقاء التي لا شفقة فيها، وتعذيبهم للنصارى الأسرى لد يهم لا حد له، من أجل افتدائهم والحصول على المال"2.

ويقول واصفا السكان بالبرابرة أن هؤلاء المتوحشون يقودون الأسرى[3] الأسرى[3] إلى بيوتهم ويوهمونهم أنهم دفعوا فيهم أموالا طائلة وأن عليهم فعل ما يمكن لتحريرهم وافتدائهم، وكانت حماقات هؤلاء البرابرة لا تنتهي،

1 - Pierre Dan, Op.cit .p 397

2 - P. Dan, Op.cit . p 397

3 - ibid. . p400

فبعض الأسرى كانوا يثقلونهم بالسلاسل تزيد وزنها عن "100 رطل" ويجبرونهم على السير بها في الطرقات1.

وقد ضمن مقدمة كتابه إهداء لملك فرنسا دعاه فيه إلى العمل بكل هوادة من أجل اقتلاع جذور الكفار الهراطقة المسلمين من افريقيا.

إن الشرور كلها تأتي من البربري والقرصان، القسوة والسرقة يمارسونها يوميا، والتسبب في الخراب المشترك للمسيحيين ،المذابح القتل الحرق الخ..

إن المجد يصنع الملوك وإنك ملك فرنسا العظيم الذي تتهدد إمبراطوريته عنجهية الأتراك والبربر بالخراب، هؤلاء الكفار يحسدوننا على هذه السعادة، لن تكون أقل ميلا للمجد من آبائك وأجدادك كلويس السابع..

يا صاحب الجلالة عليك جمع المحاربين الذين لا يقهرون لمرافقة أميرهم في مثل هذه الحرب المقدسة. هذا أقل ما يجب أن نأمله، وهكذا سنقاتل من أجل قضية الله، لن نتوقف عن الدعاء إلى الله من أجل الحفاظ على جلالة الملك. لا شك في المعاملة السيئة التي يتلقاها المسيحيون من هؤلاء الكفار، والتي ستضعون حدا لها.

خادمكم الوفي بيار دان....

2-. السلطة ونظام الحكم التركي في الجزائر من خلال الكتابات الغربية.

طبيعة نظام الحكم

وصف المؤرخون الأوروبيون ما وقع من إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية بالمغامرة التي قام بها "حفنة" من المغامرين الأتراك، حين انتصرت

1 - الذي يسلم بشهادات بيار دان المبالغ فيها يمكنه أن يصور الجزائر في هذه الفترة بصور قاتمة يعجز القصاصون ورواة الخيال التنبؤ بها والتدقيق في تفاصيلها.

على شعوب مسالمة، ونجحت بالعنف في إرساء نظام حكومي قائم في الجزائر وتونس وطرابلس[1].

ويرى الكثير منهم أيضا فيما يتعلق بطبيعة النظام السياسي القائم في الجزائر على أنه نظام ملكي استمد شرعيته من الإبقاء على حالة الجهاد مع النصارى لحماية المسلمين وتحقيق العدالة وتوسيعها2، أو أنه جمهورية عسكرية مسيطرة على دواليب السلطة3. بفضل الجيش الانكشاري

وكان نظام الحكم التركي في الجزائر يمثل أساس الدولة التي نظمت شؤون المنطقة ودفعتها لمقاومة العدوان الأجنبي الأوروبي، ويعود الفضل فيها للإخوة عروج وخير الدين بربروس الذين قاما بتأسيس إيالة الجزائر، وبناء مؤسساتها المختلفة التي ظهرت فيما بعد[4]، وتمثل الانكشارية العمود الفقري فيها[5]، وتسير وفق مؤسسات قارة أقل ما يقال عنها، أنها حققت الاستمرارية لهذا الكيان السياسي على امتداد **320** سنة، ويأتي من ضمنها الديوان الذي يتشكل من الضباط السامين للجيش ومن موظفي الإدارة المركزية والأعيان والعلماء والقادة[6].

ومهما حاولنا الفصل في زاوية الرؤيا لهذه الفترة التاريخية فسنظل حبيسي المقاربات الكلاسيكية، في وقت تعجز فيه الدراسات الحديثة على تقديم صورة جديدة مغايرة للسابق المعهود، بسبب غياب وثائق واضحة وتباين الرؤى في تحليل ودراسة تاريخ المنطقة.

---

1 -Pananti F, **relation d'un séjour à Alger**, le normant, Paris, 1820.p365.

2 - Houari T, entre dieu et les hommes lettres saints et sorciers au Maghreb 17eme siècle éditions de l'école des hautes études en science sociales paris. 1994. p 115

3 - جميلة معاشي، **المرجع السابق**، ص 41

4- M. Kadache, l'Algérie durant la période ottomane, OPU. Alger, p12

5- opcit. , p13

6- ibid. p93

ولا تكاد تتباين رؤى الكتاب الغربيين في هذا الشأن سواء من طبقة الرحالة أو من النخب الدبلوماسية، في اعتبار الحكم التركي طفرة غير طبيعية، حيث يقول الدبلوماسي البلجيكي "لوجييه دوتاسي" Laugier de Tassy، أنه :"لا توجد لنا أي علاقات بمنطقة بربريا1 تدلنا عما يحدث في هذا البلد"، وذلك في معرض حديثه عن دوافع تأليف كتابه، الذي كتبه لأسباب خاصة حيث يقول دوتاسي "ولولا بعض أصدقائي الذين طلبوا مني نشره ما اطلع عليه أحد"2.

ثم يضيف "لقد كانت الحرب التي اشتعلت بين هولندة و إيالة الجزائر قد أخذت شطرا كبيرا من النقاشات عند الناس الذين كانوا يتحدثون عن الجزائريين، ولم يكونوا يعرفونهم جيدا3 مثلما يعرفون سكان شعوب أخرى بعيدة عنا؟؟4".

ويرى الأسير الأمريكي جيمس كاثكارت5 أثناء وصفه لمدينة الجزائر في مذكراته، أن المنطقة تتوفر على إمكانيات كبيرة لبناء بلد متطور، والتي إن استغلها الأهالي وأحسنوا توظيفها، نجحوا في تحقيق هذا الهدف أيما نجاح، حيث أشار إلى جملة من مسائل التصحيح ودواعي النجاح والمعوقات، التي

---

1 - كلمة بربارية *Berbérie* ورد سياقها في أغلب المقالات ضمنيا أو في العناوين، وقد سيقت للدلالة على دولة الجزائر أو المغرب الأوسط، ولم نجد لها ترجمة تفيد معناها سوى *Berbérie* = بربارية "ترجمة آلية".

2 - Laugier de Tassy **op.cit**. . préface

3 - يقر دوتاسي بمحدودية معرفة الغربيين بالجزائريين فكتب كتابه السابق الذكر ليشكل صورة تكون محور التعامل مع الجزائر.

4 - Laugier de Tassy, **op.cit**. . préface.

5 - كان هذا الأمريكي ضمن ركاب السفينة ماريا بوسطن ينما استولى الجزائريون عليها سنة 1785 وهي أول سفينة أمريكية تقع في يد القراصنة الجزائريين، انظر: جيمس ليندر كاثكارت، **المصدر السابق**، ص 9.

تقف في طريق تحقيق ذلك، فيقول: "لو أتيح لهذا البلد نظام للحكم كفء يعمل لرخاء شعبه ويشجع الزراعة والفنون والصناعة لأصبح دون شك في ظرف بضع سنوات قطعة من جنة الخلد، ولو وجدت على رأسه حكومة رشيدة لتحول من معقل للقراصنة وقطاع الطرق كما هي الحال الآن إلى أمة تجارية كبيرة ولأصبحت من بين البلدان الصناعية المتقدمة، ولكن الدول الأوروبية الغيورة على مصالحها والتي تتخوف من منافسة الجزائر لن تسمح لهذا الشعب ولبلده بأن يصبح بلدا صناعيا وتجاريا إلا إذا أخضعته لسيطرتها كلية."1 .

السلطة الفعلية:

كان موضوع السلطة الفعلية في الإيالة محل نقاش واسع أسال الكثير من الحبر حول هذه الدولة القائمة، هل كانت السلطة التركية تتسم بالواقعية والبراغماتية، حيث سعت من خلالها إلى تحقيق الهدوء والاستقرار استنادا إلى المعطيات الميدانية، في المناطق التي تخضع لسيادتها وخاصة المدن، حيث ربطت علاقات مصلحية مع العلماء والمرابطين، ومنحتهم امتيازات كبيرة مقابل حيادهم في شؤون الحكم والسياسة2؟؟، وأما الجهات المخالفة والمعارضة لسياستها فقد اتبعت معها أسلوب المتابعة والمراقبة والضغوط والتكاليف؟؟. وبفضل هذا وبحسن التعامل مع المرابطين مكنهم ذلك من بناء نظام قوي والبقاء ثلاث قرون. بعدما أحاطوهم بهالة من الاحترام والتقديس فنالوا بذلك مباركتهم وتأييد الأهالي؟؟3 .

وممن تحدث في الموضوع الكاتب والمؤرخ "بيار بوايي" حيث كان يرى أن الأتراك كانوا يدركون أن المرابطين كان لهم تأثير كبير على السكان مما

---

1 - كاثكارت، **المصدر السابق**، ص.85.

2 - J. Faye, **op.cit**, pp.9,143,145-151,158-160.

3 - H.D. De Grammont, **op.cit**, p409.

حدا بهم إلى تجاوز كبائرهم وانحرافاتهم، حتى وان مست بالنظام العام أو بالشرع الحنيف، شريطة ألا يتهجموا مباشرة على السلطة القائمة. وكانوا يستفيدون من غنائم البحر والقرصنة، ففي سنة 1702 كما تقول إحدى الوثائق استفاد نحو 36 مرابط من مدينة الجزائر من أعطيات كبيرة من القرصنة1.

ونظرا لدقة المرحلة وقوة المشارب والولاءات الدينية، فقد صار الوضع يتطلب من الحكام الأتراك البروز بمظهر يليق برئاسة الدولة التي يعيش في ظلها المسلمون حتى وإن خالف ذلك ميول الكثير منهم، ويؤكد فيليبو بانانتي Pananti أن "الطبقة الحاكمة كانت مجبرة على القيام بكل المراسيم الدينية لتتجنب أن تكون مثلا سيئا"[2]، سواء بالنسبة للطامعين في السلطة أو الأهالي الذين يحبون السلطة المتديّنة.

كما تطلب منهم الوضع كذلك التقرب من المرابطين، حتى في المناطق البعيدة والصعبة، كمنطقة القبائل حيث إمارتا كوكو وبني عباس، التين استوطنت بهما العديد من العائلات المرابطية، فعمد الأتراك إلى التقرب من عناصرها المؤثرة بالهدايا والحبوس والإعفاء الضريبي[3].

وتعددت مظاهر التقارب بين الطرفين لتتحقق الثقة بينهما، حفاظا على المصالح المشتركة القائمة بينهما كما يذكر بعض المؤرخين، كتقديم النذور و"الوَعْدات" للأولياء والمرابطين[4]، أو الاستعانة بهم في ضبط أحوال

---

1 - P .Boyer, "Contribution à l'Etude de la Politique Religieuse des Turcs dans la Régence d'Alger (XVIe-XIXe siècles)" In: **R.O.M.M**, N°1, 1966. pp. 11-49.

2 - F. Pananti, **Op.cit** p.*332*

3 - P. Boyer, **op.cit**. pp. 11-49.

4 - حتى بايات تونس ساروا على منهج هذا التقارب فقد قام الباي حسين بن صالح عندما خرج في إحدى حملاته العسكرية سنة 1807 بأخذ نذر على نفسه تعهد فيه ببناء دار الولي الصالح سيدي علي العريان والسيد محمد بن سيدي سعيد وإصلاح مسجده

منطقة معينة يسيطرون عليها[1]، وكانت السلطة السياسية تتخير الجهات والمقابر التي يرقد فيها الأولياء والمرابطين للدفن فيها، تبركا بها[2].

ويؤكد "لويس رين" Louis Rinn أن الأهالي لم يعترفوا يوما بالداي وبسلطته إلا في حالات معينة ووفق شروط مسبقة، وهو ما يدعو للتخمين أن معاهدة 05 جويلية 1830 لم تكن تعنيهم في شيء، وفي ذلك تفسير لطبيعة المقاومة التي قادها الأهالي ضد الفرنسيين بعد ذلك3.

ويرى دوغرامون de Grammont أن السلطة الفعلية كانت بيد الديوان4، وتركت للداي القضايا الشكلية، سواء تعلق الأمر بالعيش في القصر وكثرة الحراس الذين يؤمنون وظيفته، أو المعاملة اللائقة التي يلقاها في الاحتفالات والمراسيم، والتشريف الذي يتمثل في ذكر اسمه في المراسلات التي تبدأ بـ: " نحن باشا وديوان جيش – ميليشيا- الجزائر الذي لا يقهر". "فكل ذلك كان وهما" لأن الحقيقة كما يقول دو غرامون هي "أن الباشا لم يكن سوى موقعا على قرارات الديوان التي لا يستطيع الاعتراض عليها"5.

وتخصيص أوقاف يستعان بها في رعاية طلبة العلم مقابل أن يسانده السكان في دعم حملاته العسكرية في باليك الشرق عبد الكريم غلاب المرجع السابق ص5.

1 - كثيرة هي الأمثلة عن بشاوات وبايات جزائريين جسدت سياستهم التعاون والتحالف مع هذه الفئة فقد أورد فيرو في دراساته أن اتفاقات تمت بين حسين باشا والمرابط سيدي عيسى بن سيدي مومن يتولى هذا الأخير من خلالها الوساطة مع الثوار والمتمردين حين اندلاع الثورات وفتح الحوار بين الطرفين.

2 - ابن المفتي ح ش، **تقييدات ابن المفتي**، تقديم كعوان فارس، دار النشر بيت الحكمة، الجزائر 2008، ، ص 32.

3 - L. Rinn, "Le royaume d'Alger sous les derniers deys" **in R.A**, N°41, 1897 .122.

4 - الديوان يمثل المؤسسة الثانية بعد الباشا حاكم البلاد، لكنه كان يملك صلاحيات واسعة وبيده الحل والربط.

5 - de Grammont. **op.cit**. P125.

لقد راع هذا الموضوع اهتمام أغلب الدارسين والهواة للفترة العثمانية، دون الوصول إلى صيغة تصوُّرية شاملة له، وفي هذا الصدد يرى لوجييه دوتاسيde Tassy أن الداي هو الحاكم المطلق يحكم كل الإيالة وفق هواه، ينفذ فيها سلطانه ويعاقب من يشاء، ويتحكم في المناصب ويتصرف فيها كما يشاء. لكن المنافسين كُثُر والثورات والانتفاضات متكررة تتطلب من الداي القوة والحزم والشدة أحيانا، وأحيانا أخرى تتطلب الطيبة واللين. وكان اختيار الداي وفق تنظيم الإيالة يساهم فيه كل رجال الجيش الذين يجتمعون في قصر الداي المتوفي أو الهارب1.

ويذكر "دو تاسي" de Tassy أن الشخص المؤهل للقيام بوظيفة الداي يجب أن لا يكون مطعونا فيه وان تكون سيرته حسنة ليكون في مستوى المهمة الملقاة على عاتقه ويستقبل الأزمات والملمات بكل رباطة جأش وعزيمة2، لكن كتابا غربيين آخرين يعتقدون أن النظام السياسي في الجزائر خاصة السلطة التنفيذية وهرمها المتمثل في الداي مفتوح للأقوى من الإنكشاريين والأكثر شعبية[3] .

وقد تحدث دوتاسي عن انتخاب الداي في المراحل الأخيرة من الوجود العثماني في الجزائر حيث يقول أنه في حالة شغور منصب الداي تجتمع قيادة الجيش الانكشاري والديوان في منزل الداي المتوفى، ثم ينادي الأغا بأعلى صوته في القيادة العسكرية طالبا منها من تريد انتخابه لهذا المنصب4، فيقع تسمية واحد أو أكثر، وتتكرر المناداة باسم الشخص المرغوب فيه، ولما يحصل أحدهم على التزكية يتم تلبيسه القفطان وإجلاسه على كرسي

1 - L de Tassy, **op.cit.** p212.

2 - Laugier de Tassy, **op.cit.** p212.

3 - Inconnu, **Description de l'État et de la ville d'Alger,** imprimerie de poveg, / gallica,bnf,fr, p18

4 - Laugier de Tassy, **op.cit** 213.

العرش داعين الله له بالتوفيق والسداد. ثم يقوم القاضي أو المفتي بقراءة بعض واجباته منها أن الله اختاره لقيادة البلد والجهاد، معاقبة السيئين والشريرين ومكافئة الصالحين وأن يبذل قصارى جهده في تحقيق السعادة والاستقرار للبلد والجد في تحصيل الضرائب وتحديد سعر الغلات والبضائع لفائدة الفقراء والمساكين1.

وقد بالغ الكاتب الاسباني "جوب كانو" بقسوة في وصف حكام الإيالة حين كتب :" كان الداي غنيا لكنه لم يكن يتصرف في ثروته ولم يكن سيدا عليها وأب بدون زوجة ولا أطفال طاغية بدون حرية وسيدا لا يملك لأنه مستعبد من طرف أتباعه"[2].

مشروعية الحكم العثماني وعلاقته بالباب العالي:

يثير "دوغرامون" انشغالا آخر يمس مشروعية السلطة التركية في الجزائر في الصميم، حين يقول أنها كانت تشعر بنوع من النقص في شرعية حكمها، وهو ما يفسر ردة الفعل القوية تجاه من ينبش في ماضيها أو من يعرّض بها، خاصة إذا تعلق الأمر بالمشاغبين من الجيران من المغاربة والتونسيين، الذين كانوا يعيرونها بنسبها المجهول ورصيدها الديني والشريفي الضعيف، أضف إلى ذلك فقد كان الجيران يصفون الجزائريين بقلة الفطنة والغباء كما يقول دوتاسي، لأنهم رضوا بحكم الأتراك3.

هل عجز النظام على ربط علاقات طيبة مع دول الجوار والاعتماد على الدبلوماسية لحل المشاكل معها دون اللجوء للقوة؟ ولماذا لم يحسم الأتراك خاصة في مرحلة القوة والانتشار خلال القرن السادس عشر أمرهم

1- **ibid**, p214,

2 - معمر شدري ر ، **العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر من 1871 – 1830 فترة الدايات** (ر م غ م،) قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2006 . ص21.

3 - Laugier De Tassy. **op.cit** .p 301.

عسكريا مع المغاربة وقد كانوا قادرين على ذلك، خاصة في فترة حكم صالح رايس الذي كان في مقدوره بسط نفوذه على المغرب زمن الصراع بين العلويين والوطاسيين، فقد كان يملك الجيش التركي من قوة السلاح ما يؤهله لذلك، خاصة البنادق النارية التي لم تكن مستعملة من طرف خصومه حين هزمهم سنة 1554م؟؟1

إن مما يثير الدهشة والغرابة أن الجزائر لم تفكر يوما في الانفصال عن الدولة العثمانية وبقيت علاقات الأخوة والتعاون في السراء والضراء قائمة بين الطرفين، رغم استقلال الدايات بالحكم منذ 1710، فقد ظلت السلطة المحلية ترفع كل سنة الهدية الرمزية لاسطنبول اعترافا رمزيا بأحقية السلطان العثماني2 في تولي أمور المسلمين وكان الدايات يحتفلون كل حين بالمناسبات السعيدة التي تمر بها السلطنة كاعتلاء السلاطين الجدد سدة الحكم أو ميلاد أبنائهم، وقد ساق "دوفولكس" كثيرا من الأمثلة التي عبر فيها الدايات عن سعادتهم بالأحداث المفرحة التي تحدث في العاصمة القسطنطينية فيعمدون إلى زيادة أجور الانكشارية والموظفين، ومنح علاوات لهم تعبيرا عن شكرهم لله وامتنانهم للدولة العلية3.

وكثيرا ما يعتبر البعض حكم الدايات الذي بدأ منذ 1671 بداية استقلال إيالة الجزائر عن الخلافة العثمانية وتفردها بتسيير شؤونها الداخلية والخارجية، برسم الاتفاقات والمعاهدات مع الدول الأجنبية، وحرية إعلان الحرب وعقد السلم معها، لكن ذلك الاستقلال كان استقلالا

---

1 - د طريس، **تاريخ الشرفاء**، تر محمد حجي ومحمد الأخضر، شركة المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، دت، ص 174.

2 - R Mantran, **L'évolution des Relations Politiques entre le Gouvernement Ottoman et les Odjaks de l'ouest du XVIème au XIXème siècles** , in ROMM, université d'Aix-Marseille, pp 52-65

3 -De Voulx, A.. Tachrifat, . .p77.

جغرافيا، وبقي هرم السلطة متصلا بالسلطنة، وكان لزاما على باشا الإيالة الجديد أن يحصل على فرمان التولية من الخليفة أو يكون سيف الجلاد بانتظاره في قصر الحكم1.

ويرى المؤرخ "فاضل بيات" أن التحول إلى نظام الدايات لم يكن انقلابيا كم يصوره البعض خاصة الأوربيين، وإنما جاء بالتدريج فكلما حدث نقص أو خلل في جانب معين عوضه الديوان دون أن يلقى معارضة من السلطان2، ومنذ ذلك التاريخ تحول النضال والجهاد الإسلامي ضد المسيحيين من جهاد مقدس إلى حرب غنائم، سعت كل الأطراف إلى اغتنامه3.

2-. الحياة الاجتماعية والثقافية.

التدين ومستوياته

يتساءل الكثير من الباحثين عن واقع التدين في المجتمع الجزائري في هذه الفترة هل كان وراثيا، اكتسبه الناس بالتقليد وتوارثوه جيلا بعد جيل دون فهم واستيعاب لمفرداته ومحتواه؟ أم هو نتاج فهم وبحث وعمل قام به العلماء والفقهاء؟

إن تحديد مستوى التدين لأي مجتمع هو في الحقيقة محاولة لقراءة جديدة لمعطيات قديمة كما يقول الأستاذ الباحث في تاريخ الدولة العثمانية

1- - كثير من الباشاوات والبايات انقلبوا على الشرعية بالمفهوم السياسي المعاصر، لكن دوامهم في كرسي الحكم لم يدم طويلا، فكان الديوان والانكشارية لهم بالمرصاد، مثلما حدث لمحمد بكداش 1707-1710 وصالح باي 1771-1792 قسنطينة وغيرهما.

2 - ف بيات، المرجع السابق، ص118.

3 - ع بوحوش، **تاريخ الجزائر السياسي من البداية وإلى غاية 1962**، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1997.ص60.

محمد حرب1، وأول ما يجب علينا أخذه بعين الاعتبار هو تلك الفروق الجوهرية بين فئات المجتمع الجزائري، من حيث التأثر بمختلف العلوم والثقافات، والعادات والتقاليد المتحكم فيها، فقد كانت المدن الجزائرية عكس الأرياف مسرحا لعدة تيارات وافدة سواء من أوروبا والمشرق الإسلامي والأندلس2، في وقت كان الريف يعيش في عزلة تامة عنها.

لقد كانت الظواهر الاجتماعية السلبية كشرب الخمر وممارسة البغي والفساد الاجتماعي والديني، منتشرة بصورة كبيرة في المدن، نجم عنها مشاكل وأزمات أسرية واجتماعية عديدة. بسبب انفتاح المدينة على الثقافات الجديدة الوافدة، والتي تجد من يعمل على نشرها.

ومن ابرز معالم الانحراف وجود الأسيرات المسيحيات كعنصر جديد في المجتمع الجزائري ساهم في انتشار ثقافة تعدد الزوجات والاستمتاع بهن بصورة أو بأخرى، خاصة بين فئات القادة ورجال الدين وحذا بالكثير منهم إلى إخفاء زواجه الثاني3 خوفا من المجتمع أو من زوجته الأولى وأهلها.

لقد ساهم ركود العلم والاجتهاد في المدن الأساسية كتلمسان ومازونة وتنس وجزائر بني مزغنة وبجاية وقسنطينة وبونة في تراجع التدين وصار الدين لا يؤثر في الناس، وهذا ما أثاره الرحالة الغربيون والمحليون في كتاباتهم. وقد يعود السبب في غالب الأحيان إلى غياب سلطة سياسية وفقهية قوية تحرص على وحدة المجتمع وانسجامه مع معطيات عصره.

---

1 - م حرب، **العثمانيون في التاريخ والحضارة**، دار القلم، دمشق، سوريا، دت، ص 32.

2 - كان للأندلسيين تأثيرا كبيرا في المسار الثقافي والاجتماعي للمغرب الأوسط منذ نهاية القرن الخامس عشر وحتى القرن الثامن عشر، خاصة في الحواضر التي استقروا بها كمستغانم تلمسان شرشال البليدة قسنطينة و عنابة، وقد تناول هذا التأثير العديد من الباحثين والمؤرخين.

3- أ. سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج02، المرجع السابق ،241-242.

وكانت الأرياف تعيش في ظل تخلف وركود قاتل منذ القرن16 بسبب انعدام الأمن وتفشي الأمراض والأوبئة1 التي كانت تنخر جسم المجتمع، جاء أغلبها من الأقطار المجاورة، نتيجة لسهولة انتقالها وانفتاح البلاد على تلك الأقاليم.

في ظل هذه الأوضاع اختلف الدارسون في تحديد مستوى التدين عند الجزائريين في الجزائر، فقال بعضهم بوجود مستوى مقبول من التدين وسموا لأخلاق وحسن التعامل بين أفراد المجتمع، كالرحالة الأسير الاسباني "دييغو دو هايدو" Diego de Haido الذي نوه بالخصال الحميدة التي اتسم بها الجزائري في هذه الفترة، منها الصبر والمثابرة خاصة في الأزمات والشدائد والحروب، وتحمل الألم والجوع لأيام طويلة، وذكر أن الجزائريين كانوا حين المصائب والملمات لا يكفرون بالله – لا يتفوهون بكلمات الفحش- بل لا توجد في قاموس لغتهم، سواء بالنسبة للعربي أو التركي أي عبارات كفر ومعصية لله2، وهذا يدل على قوة إيمانهم بالغيب وبعنصر الجزاء والحساب الأخروي.

ويردف بالقول :" وكان السكان لا يلعبون النرد ولا الأوراق ويعتبرون ذلك جرم كبير، ولا يلعبون في هذا المضمار إلا بالضامة والشطرنج لتسلية

---

1 - لمزيد من الاطلاع على الأوضاع الاجتماعية والصحية أثناء العهد العثماني انظر : موساوي ف ق، **الصحة والسكان في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الإحتلال الفرنسي 1518-1871**، دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، 2005.

2 -F D de Haido , **Topographie et Histoire Générale d'Alger**, Traduit de l'espagnol par, Dr. Monnereau A. Berbrugger. 1870. p196

الوقت. كما أنهم لا يتقاتلون ولا يتبارون بالسكاكين فيما بينهم1"، "وإذا حصل بينهم ذلك فإن إمكانية الصلح بينهم قائمة جدا، وسرعان ما تتحول اللكمات والصراعات إلى قبلات حارة. كما كانوا شديدي الطاعة والتسليم لحكامهم وقضاتهم"2.

وخلاصة القول بالنسبة إلى هايدو تكمن في إعجابه لما كان عليه المجتمع الجزائري، عبر عنه بقوله:" وكان الحرص على العيش كمسلم كامل الإيمان والاستقامة، يؤدي واجباته كما ينبغي، شعورا كائنا ومعاشا في هذه الفترة"[3].

ويتحدث الكاتب الفرنسي الجنرال دوماس[4] عن وجود عن وجود أخلاق عالية اتسم بها المجتمع الجزائري، بالرغم من أن الكاتب ينتمي لفترة ما بعد الاحتلال الفرنسي، حيث يقول:" إن كلمة السلام عليكم التي أخذناها من العرب تكفي للدلالة على مدى تمسك المسلمين بمعاني التحضر، هذه الكلمة بسيطة الثمن لكنها تجلب الكثير من الخير".

ثم يحلل شخصية العربي - الذي لا يزال حديث عهد بالفترة العثمانية- بقوله:" العربي يحرص على إحاطة من حوله بعبارات دافئة تهيئ أجواء الترحيب بالشخص. كما لا يوجد مثل العربي من يدرك أسرار التخاطب مع الناس وفق مراتبهم وانتماءاتهم، وكل شيء عند العربي مضبوط

---

1 - كانت عادة المبارزة بالسيف سواء للتسلية أو التدريب أو الخصومة عادة يومية عند السكان في أوروبا آنذاك، وقد أثار انعدام وجودها في الجزائر انتباه الكاتب لما ينجم عنها من خصومات وعداوات بين الناس في حال الإصابة لأحد الطرفين.

2 - Haido, **op.cit**., p197.

3 - ibid., p 198.

4 - G Dumas, **Mœurs Et Coutumes de L'Algérie Tell — Kabylie — Sahara,** librairie de La Hachette Et Cie, Paris, 1853, p36..

بدقة ومعلوم ومتوارث، يحرص الآباء على تعليمه ونقله للأبناء. ومنها التحية بين أي شخصين يلتقيان1".

ولاحظ دوماس حرص الناس على تجسيد التناغم والاندماج بينهم، دون تفريق بين عنصر وآخر، وقلما يحدث هذا التناغم إذا عاش كل فرد منعزلا عن المجموعة قابعا على ذاته. وكان من أكثر وسائل تحقيق هذا التناغم فعالية: إلقاء التحية بين الناس2، حيث ينقل دوماس أن إلقاء التحية كان لا يستثني حتى الناس الأجانب، ولو كانوا كافرين ومن ديانات أخرى، حتى لا يتأذى هؤلاء[3]، كما أن الفرد لا يمر أبدا على مجموعة من أقرانه دون أن يلقي عليهم تحية الإسلام بصوت مرتفع وقوي، وفي فصل الصيف يمكن للعربي البسيط أن يحيي قائده والقبعة على رأسه4.

إن ارتصاص البنيان الاجتماعي خاصة على مستوى الأسرة والتزام العادات والتقاليد الصارمة وخصوصيات الأسر الجزائرية وأسرارها، كانت من أكثر ما شد انتباه دوماس، حيث يقول:" وكانت الأخلاق العربية تلزم عدم الخوض في الأعراض، خاصة أعراض النساء فلا يجوز حتى ذكر أسمائهن5، والذي يعد في عرف العرب جرما لا يضاهى"6.

---

1 - Dumas, **Op.cit .** p36.

2 - إلقاء التحية بين الناس من أبرز مقومات الدين الإسلامي وصى بها النبي محمد عليه الصلاة والسلام :" ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟؟ حديث شريف.

3- ibid p36..

4- يبدو جليا تأثر دوماس بهذا الموقف مقارنة بالغربيين الذين ينزعون القبعة لتحية الكبراء.

5- وهذا مرده لتعاليم الشرع الحنيف فقد ورد في السنن قول النبي صلى الله عليه وسلم:" تجنبوا السبع الموبقات وذكر من بينها قذف المحصنات المؤمنات الغافلات" حديث شريف.

6- Dumas**, op.cit.**, p37.

وتحدث دارسون آخرون عن مختلف مظاهر العبادات التي كان يقوم بها الجزائريون والاحتفالات الدينية المختلفة من صلاة في المساجد وصوم وحج وتآزر بين فئات المجتمع وبينوا انبهارهم بها وتأثرهم بوحدة العقيدة لدى الجزائريين، خلافا لبعضهم الذين أشاروا إلى ضعف التدين عندهم، وفساد مزاجهم وسوء أخلاقهم، وأيدهم في هذا كتاب محليون كالرحالة الورتلاني الذي قال أن المجتمع الجزائري يتسم بضعف التدين وترك السنن والشعائر الإسلامية،:" وكثير من السنن والشعائر الإسلامية تركت ونبذت في وطننا بل بدلت بالضد والعياذ بالله"1، مؤكدا وجود عادات سيئة ناتجة عن ضعف التدين منها انتشار البغاء وشرب الخمر وقطع الطريق والحروب بين القبائل وانتشار ظاهرة السرقة والسطو داخل المدن وفي الأرياف، وكذلك الرحالة ابن حمادوش2.

وفي الجانب العقدي كان المجتمع الجزائري كثير التأثر بالقضايا الغيبية، التي ينسجها المرابطون والمشعوذون وكان المجتمع شديد الترقب للشائعات التي تتحدث عن الخوارق ، خاصة إذا كان مصدرها الأولياء "الصالحين" وأصحاب الزوايا "المرابطين"، للثقة المفرطة في هذه الدوائر. وانحسار الدعاة وقلة العلماء والفقهاء، وسيطرة التصوف الطرقي.

وما يلفت انتباه الدارسين والباحثين في أغلب الكتابات الغربية استعمال أصحابها لمفردات خاطئة عند الحديث عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أو الدين الاسلامي، فقد شاع عندهم عبارة "الدين المحمدي" La Religion Mahometane " كما استعملت عبارة "ماحوميتان" بالأجنبية للاشارة إليه، وقد أوردها الكثير من الباحثين، كما وردت أيضا للحديث عن

---

1 - الورتلاني، **المصدر السابق**، ص 111.

2 - بن حمادوش، **المصدر السابق**، ص236.

الاسلام، وهو اسلوب يهدف إلى محاولة شخصنة الدين الاسلامي في شخص النبي (ص) للتقليل من أثره، وربطه به دون الوحي الإلاهي1.

الثقافة والتعليم

عاش المجتمع الجزائري في العهد العثماني في حالة ركود ثقافي وفكري واجتماعي، حيث انحصر التفكير وتراجع الإبداع وقل العطاء العلمي وصار التقليد شعار السالكين لطريق العلم والفقه، وصار أسلوب التلقي الوحيد عن طريق الأقطاب الصوفية والطرقية، بدلا عن العلماء والفقهاء والمجتهدين[2].

وقد صور أحد فقهاء هذه الفترة3 ما آل إليه أمر الاجتهاد في الدين وطلب العلوم في بيتين من الشعر فقال :

خبرا عني المريد بأني كافر بالذي قضته العقول

ما قضته العقول ليس من الدين بل الدين ما حوته النقول.

وراح الكتاب والرحالة الغربيون يتفننون في وصف الواقع الثقافي بالسيئ والمظلم فوليام شالر 4 (Shaler) القنصل الأمريكي ينفي وجود العلم

---

1 - القواميس الفرنسية المستعملة لا تقدم تعريفا صحيحا للمصطلحات المذكورة أعلاه ولا موحدا في مضامينه فتأتي عبارة بربر للدلالة على شعوب افريقيا الشمالية في بعضها وفي البعض الاخر تدل على شعوب شمال افريقيا الساكنة في الجبال انظر.....

2 - بروكلمان ك، تاريخ الشعوب الإسلامية ترجمة نبيلة أمين فارس ،منير البعلبكي، ط1 ، دارالملايين، بيروت، 1948 ، ص 491 .

3 - هو الراشدي فقيه مالكي ،أصله من الرواشد بفرجيوة تولى القضاء و الفتوى بقسنطينة له كتاب في عائلات قسنطينة و قبائلها و عربها و بربرها، توفي حوالي عام 1112 هـ 1700 /م

4 - وليام شالر (وليس شيلر)، قنصل أمريكا في الجزائر، كتب مذكراته عن فترة إقامته بالجزائر من 1816 إلى 1824، ترجمها بلانشي (M.X.Blanchi) إلى الفرنسية ونشرها في باريس سنة 1830، ترجمها إلى العربية إسماعيل العربي وصدرت بالجزائر سنة 1982،

والتعليم في الجزائر ويدعي أن السكان يحتقرون العلوم ويكتفون بتعلم القرآن[1].

واكتفى أغلب العلماء ورجال الدين بالانخراط فقط في دائرة الصراع على المجال الحيوي الخارجي ضد الاسبان والأوروبين عامة، دون التفاتة للواقع الثقافي والاجتماعي والفكري الذي كان بحاجة إلى تنوير وتطوير، فالمسألة بالنسبة إليهم تتعلق بحماية المسلمين وأرض الإسلام من الغزو الاجنبي الكافر الذي ينص الدين على القيام به، فعمل الفقهاء و العلماء ومن دار في حوزتهم، ما بوسعهم للتنبيه من خطر الإسبان على سواحل شمال إفريقيا ودعوا السكان والسلطة القائمة إلى الاستعداد والحذر، ومن ذلك هذه الأبيات للشيخ الأديب محمد التواني:

فلا تمهلوا أمر الأعادي فإنهم بحال اجتماع واتفاق وشدة

وقد قطعوا قطعا فإن ظفروا بكم فقد ظفروا بأهل الجزيرة

ولا يحمي مرساكم ضعاف رجالكم ولا البدو بل تحميه أهل الجزيرة

وقد جاءت هذه الوضعية السيئة نتيجة لسنوات الجمود والتقهقر الفكري التي عاشها العالم الإسلامي ومنه الجزائر. فابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي غاب عن الحياة السياسية للمسلمين المشروع الثقافي الموحد الجامع، وتشتتت القيم الفكرية وتبعثرت الرؤى وعجزت عن التأثير في حياة العامة من الناس، واكتفى كل فقيه بما قرب يديه من الناس والمريدين.

عن منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. وقد دعا وليام شالر الأمم الأوروبية إلى العمل الجاد للقضاء على الحكم التركي في الجزائر من خلال مذكراته، وقدم الاقتراحات الميدانية لتنفيذ ذلك للمزيد انظر: مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر، المرجع السابق ط.2، ص ص.185 -192.

1 -مولاي بالحميسي ، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1979، ص.31.

ويبرر "فيليبو باننتي" عدم دخول المطبعة إلى الجزائر في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر من أجل نشر العلوم والمعارف وتطوير المجتمعات برغبة هؤلاء الباشاوات الرافضين للتجديد خوفا من انتشار العلم والمعرفة، فتكون مكانتهم وسلطانهم في خطر1.

وسيطرت الطرق الصوفية على أغلب جهات الإيالة أسلاف الأمير عبد القادر على ربوع منطقة معسكر وأحوازها، مثلما ذاع صيت آل أبَهْلَول المجاجي في أحواض شلَف وتنَس، وفي عنابة كانت المشيخة الصوفية في عائلة ساسي البوني، الذي حوله سكان المدينة في فترة قصيرة من فقيه وعالم ولغوي إلى ولي صالح لا ترد له دعوة2.

وفي منطقة دار السلطان، نجد أن خمسة من الأضرحة كانت تستقطب إليها الآلاف من الناس من مناطق غير خاضعة للسلطة، وهي ضريح "أحمد بن يوسف" في مليانة و ضريح "سي محمد بن مبارك"3 بمدينة القليعة و ضريح "ابراهيم الغبريني" بشرشال وقبري "سيدي عبد الرحمن "بوقبرين" أحدهما في مدينة الجزائر والآخر في "أيت إسماعيل" بجرجرة.

وكان بمدينة قسنطينة وحدها نحو عشرين شخصية يتمسك بها السكان كمصادر للقوة الغيبية والقدرة على الاستجابة وتحقيق المراد، منهم سيدي بومدين الذي يذكر عنه الفكون انه كان مجنونا يجوب الطرقات ثم صار وليا4، ويعتقد سكان مدينة الجزائر أن الولي "ددة وليّ5"، هو من أنبأ

1- P. Pananti, **op.cit.** p230.

2 - م. البوعبدلي، **الجزائر في التاريخ**- مقال سابق ص 4 -121.

3 - أحمد بن مبارك تقول الرواية أنه ينتمي إلى قبيلة هاشم من منطقة غريس انتقل إلى الوسط وأقام بمدينة القليعة في سنة 1601

4 - الفكون، **المصدر السابق**، ص 177.

5 - كان هذا الولي ذا سمعة كبيرة بلغت حتى خارج حدود الايالة ففي رسالة مخطوطة بالمكتبة الوطنية نقرأ فيها رغبة أحد الجزائريين المقيمين بأزمير يدعى الشيخ محمد

كما تقول الذاكرة الشعبية عن العاصفة التي أغرقت أسطول "شارل كينط" سنة 11541..

وهكذا لا تكاد تخلو مدينة من قطب روحي يتبرك به الناس ويلجئون إليه عند الملمات والأزمات. وصار لكل مدينة وقرية وليّها الصالح الذي يحميها من النوائب ويحرسها من سوء الأقدار، ويعد هؤلاء الشيوخ من أكثر الشخصيات الفاعلة والمؤثرة، ولا يزال ارتباطهم بالمخيلة الشعبية قائم إلى يومنا هذا.

وقد نسج المرابطون علاقات قوية مع السكان بفضل دورهم في الحياة الثقافية والاجتماعية ودورهم في تكريس السلم بين القبائل يقول حمدان خوجة ":"أما السلم فإنه يتم دائما بتدخل المرابط"2

وكان الاعتقاد السائد عند الأهالي في شفاء المرابطين وأنهم يملكون السر الالاهي الذي منحه لقليل من عباده ولذلك تجدهم يثقون فيهم ثقة عمياء، وكان كل مرابط شبه متخصص في نوع من الأمراض فهناك المتخصص في أمراض الحمى والعقم والصداع والشقيقة والأوجاع التي

درويش بزيارة ضريح الولي دادة وتقديم النذور إليه الرسالة تحت رقم 68 مخطوطات المكتبة الوطنية المجموعة رقم 3190.

1- يعتبر الأهالي أن انكسار حملة شارل كينت عند سواحل المدينة سنة 1541 كان لثورة الأولياء وغضبهم على الكفار فكانت نكسة المسيحيين مصدر الفرح والتهليل عندهم، بالرغم من أن الظروف الجوية الصعبة التي وقعت في عرض البحر وتزامنت مع وجود الحملة المسيحية كانت كافية لإفشالها، صحيح أن الإرادة الإلاهية تنتهي عندها عزائم الناس ومصائر الحروب والمعارك والانتصارات لكن الاعتماد عليها دون إعداد وتقديم الأسباب يعد ضربا من ضروب الجهل الذي حاربه الشرع الإسلامي انظر: عبد الكريم غلاب، **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر**، ج02، دار الغرب الإسلامي، 1996، ص124.

2 - ح. خوجة، **المصدر السابق**، ص56..

تصيب الأطفال، وتقتضي من المستشفي زيارة قبر الضريح الولي في فترات معينة والقيام بطقوس محددة كتناول فاكهة تنبت قرب ضريحه أو التبخر بالأعشاب القريبة منه ليزول بعدها ما جاء يشكو بسببه وغيرها من العلل1.

لقد كان الإيمان بالخرافة الطرقية شاملا فقد كان خير الدين بربروس نفسه يؤمن بالفكر الزواوي والصوفي، حيث كان يستريح بعد كل مواجهة في إحدى الزوايا الصوفية يستقدم منها البركة والجهد لمواصلة الكفاح ضد الإسبان، خاصة زوايا جربة وزوايا بجاية، هاته الأخيرة كان بها الشيخ سيدي محمد التواتي المتوفي عام 1505عن عمر يناهز 120 سنة، قبل سقوط المدينة بيد الإسبان وهو الذي ذكره بيري رايس بأنه قدم ملاذا ومكان آمنا لغزاة البحر2.

وكان حكام الإيالة كلما اشتد بهم البأس وضاقت عليهم الدوائر يلجؤون إلى المرابطين أحياء كانوا أو أمواتا، طالبين منهم العون والنصرة على أعدائهم، وكان هذا موقف الداي حسين سنة 1830 حينما أمر وزراءه وقواده بضرورة زيارة قبور الأولياء والصالحين والذبح عندها، وأمرهم بتفريق الأموال على الفقراء وبعث بالهدايا للأئمة، وطلب منهم الدعاء له ليندحر جيش الحملة الفرنسية الرابض أمام مدينة الجزائر، والذي حول ليلها ونهارها إلى جحيم من القذائف والدخان، فقام الأئمة ينتشرون في الشوارع ملبين رغبة الداي يدعون الناس للتوسل للأولياء الصالحين الذين يحرسون مدينة الجزائر، منهم سيدي عبد القادر، وسيدي عبد الرحمن، وسيدي ولد دادة3،

---

1 - A B A Ben Chouaib, "Les marabouts guérisseurs", in **R.A** N°51 ,1907,pp 250.255.

2 - Filali K. "Sainteté maraboutique et mysticisme « Contribution à l'étude du mouvement maraboutique en Algérie sous la domination ottomane" **In insaniat** résumé de thèse de doctorat. 1995, Pp. 117-140

3- س بفايفر، **مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر**، تر أبو العيد دودو، (ش.و.ن.ت.) الجزائر 1974. ص75.

وكان توسلهم من أجل أن يرفع الله غضبه ومقته عن الناس وتنجلي غيوم الحملة التي كانت تحاصر المدينة.

لقد وجد الأتراك الذين كانوا يحبون التصوف ويميلون إلى تقديس أهله والإيمان بصدق ولايتهم1، ضالتهم في المغرب الأوسط حيث بلغ التصوف عند الناس في هذه الفترة درجة "زبدة الدين وخلاصته"2، وصار كثير من السلاطين يحبون التصوف ويكرمون أهله.

3-. الأسرى الأوروبيون في الجزائر.

شكل موضوع معاملة الأسرى مادة مثيرة للكتابة فيها من طرف المؤرخين والباحثين من أجل الدراسة والبحث فيه والإدلاء بآرائهم، وتأرجحت مواقفهم بين طرفي نقيض، فقد نوه كثير منهم بوجود صور تكاد تكون مثالية في معاملة الأسرى المسيحيين بإيالة الجزائر، كهبنشترايت حيث يجدها أكثر إنسانية وأحسن بكثير من حالة الأسرى المسلمين الذين يعملون على قوارب التجذيف في السفن المسيحية والذين شاهدهم بنفسه وهم يكابدون تحت الثقل المضني لأغلالهم.

وقد أثارت مسألة حرية التدين في الجزائر سواء بالنسبة للأهالي أو الأسرى الأوروبيين اهتمام مؤرخي الفترة العثمانية من المؤرخين الغربيين والفرنسيين خاصة، وراح بعضهم يطلق أحكاما قاسية حول التدين وممارسة الشعائر الدينية، حيث ذكر بعضهم ممن زاروا البلاد أن مستوى حرية التدين كبير والاحساس بهذا الواجب كان شعورا لا يفارق الناس منذ نعومة أظافرهم.

---

1 - الزهراني ع، **الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وأثرها في حياة الأمة**، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة، 1414هـ، ص258.

2 - الزهراني ع ، **الانحرافات العقدية والعلمية، المرجع نفسه**، ص259

وكان الاعتقاد السائد آنذاك عند عامة الناس أن الأسرى يجبرون على الدخول في الإسلام بالإكراه أو بالترغيب[1]، وهو خطأ كبير ومستبعد جدا وأشار لذلك الدبلوماسي البلجيكي لوجي دوتاسي حيث يستبعد أن يعمل الأسياد على إسلام عبيدهم، بل إنهم يشمئزون من ذلك ويغضبهم تحول عبيدهم إلى الإسلام2 لأنهم سيخسرون من جراء ذلك الكثير من المال3.

ويضيف دو تاسي على أن حرية الاعتقاد كانت مكفولة من طرف الحكومة وأن "حكومة الجزائر وضعت مبدأ في التدين يتمثل في ترك الحرية لكل شخص، وكلما مارس الإنسان ديانته بحرية كلما لقي الاحترام والحماية.[4]

على ألا تكون هذه الحرية تمس معتقدات الجزائريين، إذ يجب على المسيحيين واليهود الحرص على عدم الكلام في الشريعة الإسلامية وإلا تعرضوا للعقوبة، وقد عوقب بحار بريطاني بجلده 500 جلدة لأنه سب الشريعة الإسلامية[5]

---

1 - إن إكراه الأسرى على اعتناق ديانة معينة كالإسلام ليس مما يقبله العقل السليم، وكانت هذه الحقيقة متجسدة في مخيلة الجزائريين برغم حالة الضعف الفكري، لإدراكهم أن الدخول في الإسلام ينبغي أن يكون طواعية ودون إكراه، لورود الكثير من النصوص الدينية من القرآن والسنة في هذا المضمار.

لقد كانت حرية التدين مكفولة للأجانب بحكم كونهم من أهل كتاب أو ذميين، لهم حقوق على المسلمين بنص الدين الإسلامي، غير أنه يجب على المسيحيين واليهود الحرص على السلوك الحسن والسيرة الطبيعية، وعدم المساس بالشرع الإسلامي الحنيف

2 - L de Tassy, opcit., p86

3 - ibid , p87

4 - ibid. p106.

5 - ibid , p107

وأما الضابط الروسي كوكوتسوف1 فيقول: إن كل الأسرى لديهم ما يحتاجونه من لباس وطعام وخلال فترة عبوديتهم يعاملهم الجزائريون بإنسانية أكثر بكثير من معاملة الأوروبيين لأسراهم والأتراك يظهرون ثقة كبيرة بالأسرى المسيحيين لا ينالها الأهالي أنفسهم، فيكلفونهم بأعمال سهلة ويسمحون لهم بأخذ قسط من الراحة بعد إتمامها، ويمنحونهم أوقات فراغ حتى يستطيعوا العمل كذلك لصالحهم الشخصي2.

لقد قامت سلطات الإيالة بمنح الأسبان رغم تاريخهم الحافل بالمواجهات الدموية مع الجزائريين، الإذن في بناء المستشفيات وتسهيل تشييد الكنائس للأسرى، خاصة منذ النصف الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي، وقاموا بإنشاء مؤسسة كاثوليكية بمدينة الجزائر تضم مستشفى أقيم به مذبح، تقام عنده الصلاة يوميا، وقد لعب هذا المستشفى دورا كبيرا في تمريض الأسرى في فترات الوباء، وصفه الأسير كاثكارت بأنه "من أكبر المؤسسات الخيرية في العالم كله، حيث يقدم رعايته لجميع المسيحيين الأسرى دون أن يأخذ في الاعتبار عقائدهم وطوائفهم الدينية وقومياتهم"3.

ويحمّل وليم ليثغو William Lightgow الرحالة الانجليزي المغامر، أبناء بلده مسؤولية وقوعهم في الأسر لعدم يقظتهم وتوغلهم في المياه القريبة من

---

1 - كوكو فتسوف (M Grigorievitch. Kokovtsov) كان يشتغل ضابطا في البحرية الروسية شارك في محاربة الأسطول العثماني في البحر المتوسط، زار عنابة سنة 1777 وصدرت انطباعات هذه الرحلة في سان بترسبورغ عام 1787 بعنوان: أخبار موثوقة عن الجزائر، انظر: زكريا العابد، المرجع السابق، ص.30.

2 - زكريا العابد، المرجع السابق .

3 - جيمس ليندر كاثكارت ، **المصدر السابق**، ص.103.

سواحل الجزائر، لأن الملاحة في البحر الأبيض المتوسط كانت مغامرة حقيقية مجهولة العواقب، بالنسبة لكثير من الأوروبيين1.

فبعد أن وصف الحالة التعيسة التي كان عليها عدد كبير من الأسرى وأغلبهم من الإسبان الذين يشتغلون في حقول وبساتين أسيادهم الجزائريين، تأسف من كون السفن الإنجليزية الصغيرة أو الضعيفة تغامر بنفسها في البحر الأبيض المتوسط، وتهزم أمام الأسطول الجزائري ويساق أفرادها أسرى، ثم يستنجد هؤلاء بالمواطنين الإنجليز لدفع الفدية وتخليصهم من الأسر". فالأحرى بهم أن يعاقبوا ويتركوا هناك تأديبا لهم على مجازفتهم داخل أخطار معروفة ودون حماية تليق بالسفن الكبرى وأن لا تستعمل أي وسيلة لمساعدتهم أو افتدائهم2 كما يقول.

ولم يكن هذا الاعتراف بحرية التدين ديدن جميع الباحثين، فقد أثار القس الاسباني بيار دان حفيظة الأوروبيين وجيّشهم للثورة والانتقام من الجزائريين بكتابه تاريخ بربريا وقراصنتها3، بما ضمنه من صور مبالغ فيها عن

1- P. Grand Champ , « le prétendu voyage de **William Lightgow** dans les états de Barbarie (1615-1616) », R. A, n°412-413, Alger, 1947, pp. Op.cit ,p.224.

كان ليثغو من الرحالة القلائل الذين عارضوا جمع الأموال لافتداء الأسرى للأسباب المذكورة أعلاه، ونقد سفراء بلاده في القسطنطينية بشدة لأنهم لا يفعلون شيئا إزاء هجمات السفن الجزائرية ضد السفن الانجليزية وبالتالي فهم ليسوا أهلا لتولي مناصبهم.

2- P Grand Champ, **Op.cit** ,p.224.

كان ليثغو من الرحالة القلائل الذين عارضوا جمع الأموال لافتداء الأسرى للأسباب المذكورة أعلاه، ونقد سفراء بلاده في القسطنطينية بشدة لأنهم لا يفعلون شيئا إزاء هجمات السفن الجزائرية ضد السفن الانجليزية وبالتالي فهم ليسوا أهلا لتولي مناصبهم.

3- صور كثيرة ذكرها بيار دان تقشعر لها الأبدان للاطلاع عليها يرجع لكتابه تاريخ بربريا وقراصنتها. والذي يعج بكثير من الصور المبالغ فيها والأحكام القاسية عن الدين والإسلام منه قوله في الصفحة 37 :"**الشيطان عدو الإنسان يبحث دائما لغوايته**

المضايقات والتعذيب الذي يتعرض له الأسرى المسيحيون1 والإكراه لترك المسيحية والدخول في الإسلام.

ونقل عن الأسير المحرر "ج ميتزرن" في يومياته أن سلطات الإيالة مكنت الأسرى المسيحيين في سجن سركاجي من ممارسة شعائرهم حيث خصص الأسرى جزء من السجن وجعلوه كنيسة كاثوليكية وفي كل صباح كانوا يؤدون صلاتهم قبل الذهاب للعمل2.

ويصف دي فونتان الأسرى لدى باي معسكر بأنهم كانوا يعيشون حياة مريحة توزع عليهم الأرزاق والأموال لسد حاجاتهم كل حين3.

أما فونتير دو بارادي فقد أكد من جهته أن العبيد كانوا لا يقيدون بالسلاسل في أرجلهم إلا عقوبة لجرم اقترفوه أو خشية الفرار4.

وخسرانه ويشجع محمد وأتباعه لتهديم كنيسة الله، والمسلمون دوما في لهفة لموت النصارى، سواء رجال أو نساء أو مرابطين أو غيرهم من الفئات الاجتماعية" انظر

.P.Dan **Histoire de Barbarie. Et de ses Corsaires** des royaumes, & des villes d'Alger, de Tunis, de Salé, & de Tripoli. Pierre Rocolet, Imprimeur & Libraire seconde édition PARIS 1646

1 - لقد كان الأسرى الأوروبيون يقعون في الأسر في ظل ظروف عديدة فمنهم المحاربون الذين يؤسرون بعد معارك طاحنة ومنهم التجار ومنهم الرحالة، وكان أسر الأوروبيين والمسلمين لبعضهم البعض ظاهرة عامة ونشاطا يوميا وواقعا معاشا، انتهت إليه العلاقات الإقليمية بين ضفتي البحر المتوسط.

2- ميتزرن ج، **يوميات أسر في الجزائر 1814-1816**، ترجمة ج هـ بوسكي، وج ق بوسكي، تعريب محمد زروال، دار هومة للنشر، الجزائر، 2011، ص 28.

3 - L.R. Desfontaines, **Fragments d'un Voyage dans les régences de Tunis et d'Alger**, T2.Librairie de guide, Paris, 1838, pp. 185.

4 -V. De Paradis , **Tunis et Alger au XVIII siècle** , la Bibliothèque Arabe Sindibad , France , 1980 , p158.

كل هذه الصور تتنافى مع ما ذكره بيار دان في كتابه تاريخ بربارياوقراصنتها حيث عج مؤلفه بسرد قصص خيالية عن صور التعذيب والقتل العشوائي التي يتعرض لها المسيحيون في الجزائر1.

الخاتمة:

إن أغلب الكتابات في القرن التاسع عشر قد قام بها عسكريون مرتبطون بالحركة العسكرية والاستيطانية التي رافقت احتلال الجزائر سنة 1830. وبالتالي وضع أسس الأمبراطورية الاستعمارية الفرنسية التي ستتضح معالمها في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كقوة عسكرية دولية.

ساعدت هذه الكتابات في تعريف المجتمع الفرنسي المنغلق حتى ذاك الوقت بعالم فسيح هو المغرب الاوسط وفي هذا الإطار ذكر ترومليي في مقدمة كتابه " أما نحن المجهولون بالنسبة للقراء فاننا لا نجد ما نقول في مقدمة كتابنا سوى أننا نريد أن نضع بين يدي الجمهور أحاسيسنا وانطباعاتنا وحوارتنا مع أهالي البلد الأنديجان مع قدماء ضباطنا في إفريقيا ورحلاتنا الاستكشافية الطويلة التي قمنا بها"؟؟ .

ويمكن تصنيف كتابات الغربيين إلى قسمين اساسين هما:

الصنف الأول: هو الصنف الذي رسم صور مشرقة للحياة الاجتماعية والسياسية مرتبطة بواقع الإيالة وإمكانياتها المتوفرة آنذاك، حيث أكد هؤلاء على القيم التالية:

- وجود قيمة الإيجابية خلف الجزائري "العربي" في التعامل مع غيره من بني جنسه.
- الانسجام والتناغم الاجتماعي بين طبقات وفئات المجتمع.

1 - Le Père Dan, **Histoire de la Barbarie et de ses corsaires**, Pierre Rocolet, Paris, 1637.

- الأتراك يمثلون امتدادا للتعاون بين المسلمين في اطار الخلافة الاسلامية.
- استكمال الفرد أدوات التربية المدنية والتي تلزم عليه الانضباط والانسجام داخل المجموعة.
- حرص الآباء والأولياء على تربية أبنائهم وتوريثهم لهذه المنظومة التربوية الفعالة.
- التمازج بين العناصر الاجتماعية المختلفة وانعدام الفروق الاجتماعية والفئوية ساهم في استقرار المجتمع.

الصنف الثاني: هو الصنف الذي رسم صور مبهمة وكالحة للوقاع السياسي والاجتماعي للإيالة، واعتبرها منطقة فوضى بربرية ومجالا مفتوحا وجب على الغربيين اقتحامه، حيث أكد هؤلاء على القيم التالية:

- الأتراك يشكلون عنصرا غريبا.
- الاسرى الاوروبيين بالسجون المحلية يعيشون في ظل ظروف قاسية، ذريعة لاستمرار محاولات احتلال وتحطيم الايالة.
- القيم الدينية المحلية قيم عدوانية لا تقبل الاخر وتثير الضغائن والأحقاد.
- التطرف الديني طبع عليه سكان المنطقة لعيشهم المعزول عن مؤثرات الثقافة الغربية بسبب وجود الأتراك.
- الجهل والتخلف والانكباب على العلوم الدينية مما أدى إلى عدم قبول الاخر.

.....